لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، **وقوله:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]. **وقد ورد بعض آيات تدل على هذا الأصل الكبير؛ فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، إن توسّل بها إلى فعل واجب أو مسنون كانت مأموراً بها، وإن توسل بها إلى فعل محرم أو ترك واجب كانت محرمة منهياً عنها، وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله الموفق.**

التعليق

الأمثلة واضحة: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، الأصل في سبّ آلهة المشركين الإباحة، بل قد يجب، فإذا كان يؤدي إلى سبِّ الله عز وجل، وهو منزَّه عن ذلك جل وعلا ـ بخلاف آلهتهم ـ كان محرماً.

والضرب بالرِّجل، الأصل فيه الإباحة، فإذا كانت المرأة تضرب برجلها ليعلم ما تخفي من زينتها؛ صار حراماً. فلا يجوز للمرأة أن تبدي شيئاً من حليها؛ لأنه قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، مع أنها تُعلم ولا تُرى. فكيف إذا لبست المرأة حلياً جذاباً، في ذراعيها، أو في ساقيها، وأخرجت ذلك للناس! فإنه يكون أشدّ تحريماً.

ثالثاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، والأصل في البيع والشراء أنه حلال مباح، فإذا كان يؤدي إلى ترك واجب، وهو صلاة الجمعة؛ كان

حراماً، فعقد البيع باطل؛ لأنه منهي عنه بخصوصه بعد الأذان الثاني، الذي عند مجيء الإمام لصلاة الجمعة؛ لأنه هو المعروف المعهود عند نزول الآية، فتحمل الآية عليه، وهل يبطل سائر العقود كالنكاح؟

يقول بعض العلماء: إنه لا يبطل؛ لأنه ليس بيعاً، والله جل وعلا إنما نهى عن البيع. ولكن قال بعض العلماء: إنما نهى عن البيع؛ لأنه هو الأكثر والمعتاد، ولأنه هو السبب الذي جعل الصحابة يخرجون من عند الرسول ﷺ ليتلقوا هذه التجارة، فيكون ذكر البيع ليس من باب التخصيص، ولكن من باب ذكر الغالب، وأن كل ما ألهى عن ذكر الله، وعن حضور الصلاة، فإنه يقع باطلاً.

وقد يترجح القول الأول، وهو التخصيص بالبيع؛ لأنه هو الذي قد يَرِد غالباً، لو أنك فكرت في معاملات الناس لوجدت البيع يقع كثيراً في هذا الوقت، وعقد النكاح قليل نادر، وإلا فربما يكون الانشغال بعقد النكاح أشدّ من الانشغال بالبيع. وعلى كل حال الأمر فيه سعة؛ نقول: بدل أن يعقد في هذا الوقت فليؤخر، والمشهور من المذهب عند الحنابلة: يصح النكاح وسائر العقود ما عدا البيع وما في معناه؛ كالإجارة. أما النكاح وبقية العقود، فتصح. وعللوا ذلك بأنها نادرة، والنادر لا حكم له، وفيه وجه آخر في المذهب: أن النكاح وسائر العقود لا تصح؛ لأن العلّة الموجودة في النهي عن البيع، موجودة في هذه العقود.

القاعدة السادسة والستون:

من قواعد القرآن أنه يستدل بالأقوال والأفعال على ما صدرت عنه من الأخلاق والصفات.

وهذه قاعدة جليلة، فإن أكثر الناس يقصر نظره على نفس اللفظ الدالّ على ذلك القول أو الفعل من دون أن يفكر في أصله وقاعدته التي أوجبت صدور ذلك الفعل والقول، والفطن اللبيب ينظر إلى الأمرين، ويعرف أن هذا لهذا، وهذا ملازم لهذا، وقد تقدم ما يقارب هذا المعنى الجليل؛ ولكن لشدة الحاجة إليه أوردناه على أسلوب آخر؛ فمن ذلك أن قوله عن عباد الرحمٰن أنهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذلك صادر عن وقارهم، وسكينتهم، وخشوعهم، وعن حلمهم الواسع، وخُلقهم الكامل، وتنزيههم لأنفسهم عن مقابلة الجاهلين.

ومثل قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، يدل مع ذلك على حسن إدارة المُلك، وكمال السياسة، وحسن النظام...

التعليق

يعني: كل في عمله الخاص، وهذا لا شك دليل على حسن إدارة الملك؛ لأننا لو جعلنا الأعمال كلها عند طائفة واحدة، أو عند شخص واحد؛ لانهارت أعصابه، وعجز عن تدبير الملك، فإذا

وزعت، وقال: هذا على المال، وهذا على السياسة، وهذا على كذا، فهو خير.

❑ ❑ ❑

... **وقوله تعالى:** ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، **يدل على حُسن الخُلق، ونزاهة النفس عن الأخلاق الرذيلة، وعلى سعة عقولهم، وقوة حلمهم واحتمالهم. ومثل الإخبار عن أهل الجاهلية بتقتيل أولادهم خشية الفقر، أو من الإملاق؛ يدل على شدة هلعهم، وسوء ظنّهم بربّهم، وعدم ثقتهم بكفايته. وكذلك قوله عن أعداء رسوله:** ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]؛ **يدلّ على سوء ظنهم بالله، وأن الله لا ينصر دينه، ولا يتم كلمته. وأمثلة هذا الأصل كثيرة واضحة لكل صاحب فكرة حسنة.**

التعليق

معنى هذه القاعدة: أن الأفعال والأقوال إذا صدرت من شخص استدلّ بها على حاله، كمالاً كان أو نقصاً. فإذا وجدنا هذا الرجل، ـ مثلاً ـ متأنياً في أموره، متدبّراً لما يقول وما يفعل، استدللنا بذلك على كمال عقله، ووفور ذهنه. وإذا رأينا الأمر بالعكس، استدللنا على سوء عقله وتدبيره؛ فيستدل بالآثار على المؤثر. هذا هو الخلاصة: آثار الشيء يستدل بها على مؤثرها.

القاعدة السابعة والستون:

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق عند ورود الشبهات والتوهمات.

وهذه قاعدة جليلة يعبّر عنها: «أن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المتيقن» ونحوها من العبارات. وقد أرشد الله إليها في مواضع كثيرة لما أخبر تعالى عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المشتبهات؛ أنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، فالأمور المحكمة المعلومة يتعين أن يرجع إليها الأمور المشتبهة المظنونة. وقال تعالى في زجر المؤمنين عن القدح في إخوانهم المؤمنين: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، فأمرهم بالرجوع إلى ما عُلم من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل المعلوم، ولا يعتبروا كلام من تكلم مما يناقضه ويقدح فيه. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من كل عيب ونقص قاله فيه من آذاه؛ لأنه لا يكون وجيهاً عند ربّه حتى يسلم من جميع المنقصات، ويتحلَّى بجميع الكمالات اللائقة بأمثاله من أُولي العزم، فيحذر الله هذه الأُمة أن يسلكوا مسلك من آذى موسى مع وجاهته، فيؤذوا أعظم الرسل جاهاً عند الله، وأرفعهم مقاماً ودرجة. وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

القاعدة الثامنة والستون:

ذِكْر الأوصاف المتقابلات يغني عن التصريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلوماً.

وهذه القاعدة في القرآن كثير، يذكرها في المقامات المهمة؛ كالمقابلة بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، وبين إلٰهيته الحق وإلٰهية ما سواه، فيذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها، ويدع التصريح بالمفاضلة إلى العقلاء، قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ **والآيات التي بعدها** [النمل: ٥٩ ـ ٦٠]، ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]، ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤]، **وقال تعالى:** ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، **وقال مثلها:** ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، **فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة لعلمه من المقام؛ فقوله:** ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] **إلى آخرها، يعني: كمن ليس كذلك. والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب؛ كقوله:** ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]،

ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي، وما يدعو إليه، وأعظم الناس معارضةً له؛ قال: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، **﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾** [القلم: ٥ ـ ٦]، **﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾** [البقرة: ٢٥٦]، **﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾** [الكهف: ٢٩]؛ **وذلك أنه إذا مُيِّزتَ الأشياء تمييزاً تماماً، وعُرفت مراتبها في الخير والشرّ، والكمال والنقص؛ صار التصريح بعد ذلك بالتفضيل لا معنى له، والله أعلم.**

التعليق

السؤال عن الشيء المعلوم لا حاجة إلى أن يجاب عنه: **﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**، معلوم أن الله خير! **﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾** [النمل: ٦٠] إلى آخره. وهكذا، فالشيء المعلوم لو ذكر؛ لكان الكلام فيه لغواً لا فائدة منه. **﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾**، يعني: كمن هو غافل، لا يقنت في الليل ولا في النهار، على الوصف الذي ذكره الله تعالى. وهكذا، فإن الشيء المعلوم يُغني عنه ذكر ما يقابله مما هو معلوم أنه خير أو شر.

القاعدة التاسعة والستون:

من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه.

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة:

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأوّلين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله، فعوَّضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعزّ والتمكين. وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهَبَ له إسحاق ويعقوب، والذريّة الصالحين. وسليمان ﷺ لما ألهته الخيل عن ذكر ربّه فأتلفها عوّضه الله: ﴿ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦]، **﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾** [ص: ٣٧].

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله وهب لهم من رحمته، وهيّأ لهم أسباب التوفيق والراحة، وجعلهم هداية للضالين.

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، **ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى؛ عوَّضه من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق جميع لذّات الدنيا.**

التعليق

هذا شيء مشاهد؛ أن الإنسان إذا ترك محارم الله عز وجل، خوفاً منه سبحانه وتعالى، ورغبةً فيما عنده من الثواب، فإنه يجد في

قلبه لذةً وحلاوة، وحباً للخير، لا يمكن أن يوصف. وإذا انغمس الإنسان في شهواته، وفي لهوه وغفلته؛ صارت هذه الشهوات، والغفلة، والله، حسرةً عليه، وتجده يكون منقبضاً، إذا فارق هذه الشهوات طرفة عين.

إبراهيم عليه السلام، لما استسلم لذبح ابنه، وهو أحبّ شيء إليه في الدنيا، ورَّثه الله جلّ وعلا الخلة، فاتخذه خليلاً.

وقال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]. قال العلماء والمفسرون من السلف: معناه: أنه صار يضرب رقابها وأرجلها. السوق: جمع ساق، والأعناق واضحة؛ وذلك أنه غضب لله عز وجل، على نفسه، وحرم نفسه هذا الأمر الذي ألْهته به عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

وإتلاف المال للمصلحة جائز، مثاله: إتلاف المال للنكاية، فالغال من الغنيمة يحرق رحله! ولا يجعل مع الغنيمة؛ لأنه أنكى. وإلا لقلنا: كل العقوبة بالمال تنسخ! ولكن نقول: ما يترتب على إتلافه من المصالح أكثر من كونه مالاً.

ولكن هل من المشروع لنا إذا ألهانا شيء عن ذكر الله أن نتلفه؟ نعم، لا مانع أن نتلفه لأجل تعزير النفس وردعها، حتى لو كان هذا الشيء من بهيمة الأنعام؛ لأن ضررها عليك.

والزوجة إذا ألهته عن الصلاة هل يشرع أن يطلقها؟ ينظر في هذا؛ وإلّا، لا شك أنها إذا ألهته عن طاعة الله، أن هذا من شؤم المرأة، أن تكون سبباً لإلهاء الإنسان عن طاعة الله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ

﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، فبيَّن الله سبحانه وتعالى، أن من أزواجنا مَن يكون عدواً لنا، ويحذرنا من ذلك. وهذا هو الواقع، تجد بعض النساء تطلب من زوجها أن يذهب بها إلى السينما، وأن يسافر بها إلى الخارج، وأن يمكّنها من رؤية النساء الكاسيات العاريات، وما أشبه ذلك. وبعض الناس ـ والعياذ بالله ـ ليس له إلا الشهوة فقط، فهذه المرأة محل شهوته، لا يهمه أن يأتي بكل ما تريد، فيبطل رجولته عند وجود شهوته.

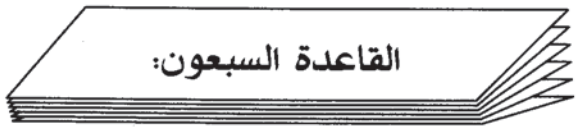

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين، ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه.

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح، وفي طريقته في محاجَّة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية؛ ما يدلّ على هذا الأصل، ويُعَرِّف الخلق أن العصمة من الشرور كلها التمسك بهذا القرآن، وأصوله، وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وأعماله؛ ولكن نزيد هنا بعض التفصيلات، فنقول: أهل الشر والفساد نوعان:

أحدهما: المبطلون في عقائدهم، وأديانهم، ومذاهبهم، الذين يدعون إليها؛ ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء، وإقامة الحجج والبراهين على فساد أقوالهم شيء كثير، لا يأتي مبطل بقول إلا في القرآن بيانه بالحق الواضح، والبرهان الجلي؛ ففيه الردّ على جميع المبطلين من الدهريين، والماديين، والمعطِّلين، والمشركين، والمتمسِّكين بالأديان المبدّلة والمنسوخة من اليهود، والنصارى، والأميين، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يذكر الله حجج هؤلاء وينقضها، ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف، وتفصيل هذه الجملة لا يحتمله هذا الموضع.

النوع الثاني من المقاومين للأديان، والدنيا، والسياسيات، والحقوق: الشيوعيون الذين انتشر شرّهم، وتفاقم أمرهم، وسَرَت دعايتهم في طبقات الخلق سريان النار في العشب الهشيم، ولم يكن عند الأكثرين ما يردّ صولتهم، ويقمع شرّهم، وإنما عندهم من الأصول، والعقائد، والأخلاق والسياسات ما يمكِّن أمثال هؤلاء الذين هم فساد العباد والبلاد، ولكن ـ ولله الحمد ـ القرآن العظيم، والدين القويم، قد تكفَّل بمقاومة هؤلاء كما تكفل بمقاومة غيرهم، وفيه من الأصول والأخلاق والآداب الراقية ما يردّهم على أعقابهم منهزمين؛ فما فيه من العدل، ووجوب الحقوق العادلة بين طبقات الناس بحسب أحوالهم، وما فيه من إيجاب الزكاة، والإلزام بها، ودفع حاجات الفقراء والمضطرين، ووجوب القيام بالمصالح الكلية والجزئية، ووجوب حفظ الأملاك والحقوق؛ كل هذا أعظم سدّ، وأحكم حصن، للوقاية من شرور هؤلاء المفسدين، وكذلك ما حضّ عليه القرآن من لزوم الآداب العالية، والأخلاق السامية، والأخوة الدينية، والرابطة الإسلامية يمنع من تغلغل شرورهم التي طريقها الأقوم تحليل الأخلاق، وانحلال الآداب، وتحلل الروابط النافعة، والثورة العامة على الرأسماليين الذين يجمعون ويمنعون؛ فهؤلاء وإن أبدوا من القوة المادية، والتسلط على العباد بالقهر، والاستعباد، والطمع، والجشع، فإنهم لا ثبوت لهم على مقاومة هذا التيار المزعج، المخرِّب، المدمِّر ما مرّ عليه؛ فما معهم سلاح يقاوم سلاحهم، ولا قوة تجابه قوتهم؛ لكونهم لم يتمسَّكوا بالقرآن الذي فيه العصمة والقوة المعنوية، والصلاح والإصلاح، والعدل، ودفع الظلم، والآداب والأخلاق العالية التي لا تزعزعها عواصف الخراب؛

بل تقذف بالحق على الباطل، فتدمغه فإذا هو زاهق، فإذا جاء هؤلاء المفسدين بالتعطيل المحض، والإنكار الصِّرف أبدى القرآن من الحجج والبراهين على وجود الله، وعظمته، وتوحيده، وصدقه وصدق من جاء به ما تصدَّع له الجبال، وتخضع له فحول الرجال، وإذا تسرَّب هؤلاء الأشرار بتوسط الأخلاق الرذيلة، وانحلال الآداب الجميلة، ووجدوا مسلكاً في هذا الطريق يُعينهم على تنفيذ باطلهم؛ جاءهم هذا القرآن بالحثّ على الأخلاق العالية، والأعمال الصالحة، والآداب الجميلة، التي لا تدع للشر على صاحبها سبيلاً. وإذا صالوا بالفقر والفقراء ووجوب المساواة، واحتجوا على أرباب الأموال بالاحتكار والسيطرة، واستعبادهم للعباد، واستبدادهم بالأملاك والأموال، ولم يجد هؤلاء قوة عليهم، وليس بهم طاقة بوجهٍ من الوجوه؛ تصدَّى هذا القرآن العظيم بعدله وقسطه، وإيجابه الحقوق المتنوّعة ـ الدافعة للحاجات كلها بعد قيامها بالضرورات ـ لصدّهم، ومقاومتهم، وإبطال كل ما به يصولون ويجولون. ثم إذا برز بصلاحه وإصلاحه العظيم، ونظامه الحكيم، وهَدْيه القويم، وحثّه على سلوك الصراط المستقيم، ونوره الساطع، وحججه القواطع؛ لم يبق في وجهه باطل إلا محقه، ولا شرّ إلا سحقه، ولا بقي مَن قَصْدُه الحق والصواب إلا اختاره واعتنقه، ولا تأمّله صاحب عقل ورأي إلا خضع له، فهو الحصن الحصين من جميع الشرور، وهو القاهر لكل من قاومه في كل الأمور.

القاعدة الحادية والسبعون:

في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني.

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود في وضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك التي ترجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها، فإنها ترجع إلى أصلٍ واحد، وقاعدة كليه.

وأما نفس ألفاظ القرآن الكريم، فإن كثيراً منها من الألفاظ الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنها تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أُعطي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً؛ ولنمثل لهذا النوع أمثلة، ونذكر أنموذجاً منه: فمنها قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، **﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾** [يونس: ٢٦]، **﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾** [الرحمٰن: ٦٠]، **﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾** [الواقعة: ١٠]، **﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية** [النحل: ٩٠]، **﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾** [المائدة: ٢]، **﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾** [النحل: ٩٧]، **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾** [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، **﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ﴾** [المزمل: ٢٠]، **﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [الزمر: ١٠]، **﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾** [الحجرات: ٦]، **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ**

بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ **الآية** [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ **الآيات** [الرعد: ٢١]، ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦]، ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾

[الحج: ٧٨]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فهذه الآيات الكريمة وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كبير، تحتوي على معانٍ كثيرة وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه، ولله الحمد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وقد يسَّر الله ما مَنَّ علينا بجمعه، فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتاباً يسُر الناظرين، ويُعين على فهم كلام ربّ العالمين، ويبدي لأهل البصائر والعلم من المآخذ، والمسالك، والطرق والأصول النافعة؛ ما لا يجده مجموعاً في محلٍّ واحد، ومَخْبَرُ الكتاب يغني عن وصفه، وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مقرِّباً لديه في جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه، وقارئه، والناظر فيه، وجميع المسلمين بمنِّه وكرمه، وجوده وإحسانه، وهو خير الراحمين، وصلَّى الله على محمد، وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه جامعه العبد الفقير إلى الله في كل أحواله: عبد الرحمٰن بن ناصر العبد الله السعدي، وقد تم ذلك في ٦ شوال سنة ١٣٦٥هـ، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.